حضر أهالى الحارة وأقارب العائلة يقدمون واجب العزاء، وحضر الدكاترة زملاء الدكتور حنفى ليقدموا واجب العزاء لأم حنفى .

لم ينطق أحد بأى كلمة فإن مصاب أم حنفى مصاب ثكلى يحرق قلوب أكثر الناس غلظة .

توفى الحاج سيد بعد أبنائه بشهور. وهو لا يعلم أو يعي شيئًا عن استشهادهما.

عاشت أم حنفى بعد استشهاد ابنها عدة سنوات حزينة كسيفة البال، وفقدت الذاكرة لكنها لم تنسى ابنها الدكتور حنفى أبدًا وفى خلواتها مع نفسها كانت تدعو ربها بالرحمة وتناجيه:

اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكني أسألك اللطف فيه.

«أمّان وثورة»
(2)
أم نجوى

سمع المارة بالشارع صراخ وعويل طفلة فى ذاك المنزل بالدور الثانى.

تسلقت أم منير المسيحية السلالم بسرعة فهي تقطن فى الدور الاول لانقاذ نجوى من أمها قبل فوات الأوان، ورغم سمنتها فقد وصلت فى الوقت المناسب ونزعت الطفلة من تحت أمها التى كانت تجلس على ظهرها وتضربها بالحذاء مرة على رجليها ومرات على رأسها ووجهها .

صاحت أم نجوى : هذه ابنتى وأنا حرة فيها، أربيها كيفما أشاء.

لم تعيرها أم منير أى اهتمام، وإنما أخذت الطفلة الباكية فى أحضانها وقد تورمت عينها اليمنى نتيجة ضربة من الحذاء. فهى تعرف أمينة أو أم نجوى منذ سنوات

عديدة، عندما انتقلت وهى عروسة فى سن السادسة عشرة مع عريسها الأسطى قبارى الميكانيكى وهو فى سن الواحد والعشرين عاما. وكونت عنها فكرة دقيقة فأمينة نرجسية سادية راكبها العظمة، وتعتقد أنها أجمل وأقوى سيدة فى الحارة. ولا تظهر هذه القوة إلا على نجوى الطفلة الوسطى فى أولادها. أمينة كذلك عصبية المزاج تغضب لأى سبب وبدون سبب، ولا تتورع فى أن تسب أى شخص كبيرا أو صغيرا حتى لو كان أباها. لكن قبارى لا يقبل هذا وكان يحاول أن يؤدبها فيوسعها ضربا لكنها لم تتأدب أبدا ولم تمتنع عن ضرب أولادها وبالذات نجوى التى تشبه أخت زوجها، فكان تضربها انتقاما من زوجها وأهله.

لم تسأل أم منير عن سبب هذه المشكلة التى كادت أن تودى بحياة الطفلة نجوى، فالسبب معروف وهو أن أمينة فاقدة الرشد والرحمة.

سبب هذا الموقف غير الآدمى أن نجوى ذات الثمانى سنوات ذهبت لشراء طماطم لأمها لكى تستعملها فى الطبخ، لكن الطماطم كانت خضراء ولا تصلح للطبخ، فأرسلتها عدة مرات لاستبدالها وكل مره تأتى بطماطم خضراء، والذى لا تعرفه المتوحشة أمينة عن طفلتها أنها مصابه بعمى ألوان فإنها لا تميز بين الأخضر والأحمر.

لأكثر من عشر سنوات وأمينة تتدخر من مصروفها الكثير، فكانت تبخل فى الأكل على أولادها، ففى الصباح شاى وقليل من الحليب وخبز، وفى الغداء تؤخر الموعد حتى يأتى زوجها فى المساء ويأكلوا جميعا، ويعتقد زوجها أن الأولاد يأكلون مثله فى الغداء.

مرة واحدة فى الأسبوع يأكل الأطفال ثلاث وجبات وهو يوم العطلة الأسبوعية للأسطى قبارى، وأحيانا كثيرة يعمل قبارى يوم العطلة الأسبوعية. وهذا البخل ليس بسبب ضيق ذات اليد، فقد كان قبارى يكسب كثيرا من مهنته، لكن أمينة كانت تتدخر من أكلها وأكل أولادها لكى تشترى قطعة أرض وتبنى عليها بيتًا مثل عمتها الغنية والتى يقال عنها التركية .

لم تتدخر أمينة أي حيلة للادخار فقد كانت تشترى الأطعمة الرخيصة الفاسدة والمنتهية صلاحيتها . وتبيع الملابس القديمة وغيرها لباعة الروبابكيا وتتدخر كل قرش. فالأطفال صغار لا يميزون، بين الطعام الرخيص والغالى . فأمينة تطبخ الطعام جيدا بالبهارات فتختفى أي عيوب فيه.

فى إحدى المرات خرجت نجوى لإرجاع الطماطم للبائع كالعادة، فرفض البائع إرجاعها، ونهرها وسبها بكلمات قبيحة.

فقالت له إحدى البنات، وكانت أكبر من نجوى سناً : عيب ياعم هذا الذى تقوله لها هذه بنت ناس.

فقال لها البائع إنها خادمة عند الست المجنونة فى الدور الثانى.

أُحرجت نجوى أن يقال عنها خادمة وأمها مجنونة. ألقت نجوى بالطماطم فى سلة المهملات ورجعت لأمها وأعطتها ثمن الطماطم، والثمن كان مصروفها الوحيد.

أمينة: اذهبى واحضرى الطماطم مرة أخرى.

نجوى : لقد ذهب البائع ولا يوجد طماطم أخرى فى السوق إلا بسعر مضاعف.

لكن أمينة لن تدفع سعرًا مضاعفًا حتى لو مات أولادها من الجوع .

الطفلة نجوى تفكر وهى حزينة فى كلام بائع الطماطم وتسأل نفسها هل هى خادمة فعلا لهذه الست المجنونة التى هى أمها؟

لم يجد عقل الطفلة إجابة على هذا السؤال. فانزوت فى جانب من الصالة وانهمرت فى البكاء المكتوم، فقد كانت نجوى طفلة صغيرة جياشة الشعور رقيقة الإحساس والبنية، تبكى وتفرح لأى شئ . تبكى لأن البرد والجوع وضرب أمها يعتصر بدنها الرقيق وتبكى بسبب عذابها النفسى وحيرتها من أمها .

رغم قسوة أمينة على ابنتها نجوى لكنها كانت تثق فيها لأنها لا تقول شيئًا لأبيها أو غيره عكس ابنها الأكبر محمد الذى كان يقول كل شئ لأبيه وغير أبيه، فهو يحب الكلام وكثيرًا ما يكذب!.

فى أحد الأيام، أخذت أمينة ابنتها نجوى وذهبا لأطراف المدينة حيث تقطن

قريبتها، وسألت أحد السماسرة على قطعة أرض للبيع، فعرض عليها السمسار قطعًا مختلفة، لكن لم يعجبها المعروض .

عرف سامى أخو أمينة الصغير أن أخته معها مبلغ كبير ادخرته لشراء قطعة أرض . فتحايل عليها هو وأمه وأقنعاها بأن تدخل معه فى مشروع تاكسى الذى سوف يعمل عليه هو ويدر لها إيرادًا تشترى منه قطعة الأرض التى تحلم بها، وتحتفظ بمدخراتها فى صورة تاكسى. كذلك تكيد لزوجة أخيها الأكبر الذى يعمل أجيرا كسائق تاكسى لا يملكه.

فتضرب أمينة أربعة عصافير بحجر واحد، وهى أن تكيد لزوجة أخيها الكبير. وتشترى تاكسى لأخيها الصغير. وتحصل على إيراد شهرى تشترى به أرضًا. وتحتفظ بمدخراتها فى صورة تاكسى سوف يدر عليها مكسبًا شهريًا.

والذى كانت لا تعرفه أمينة أن أخوها لا يملك شيئًا ، وأن ثمن التاكسى سوف تدفعه هى بالكامل.

ذهبت أمينة تحمل مدخرات عمرها فى منديل مربوط عدة مرات. مدخرات عمرها التى ادخرتها على مدى أكثر من عشر سنوات، وقد ادخرتها على حساب طعامها و طعام أولادها، ومن وراء ظهر زوجها المطحون عملا ليلا نهارا.

فطلبت أن يكون التاكسى باسمها، لكن أخوها استغل جهلها وغبائها وقال لها:

يجب أن يكون معك رخصة قيادة لكى تكوني مالكة للتاكسي.

دفعت أمينة ثمن التاكسى كاملا نقدا. فقط لكى تكيد لزوجة أخيها الأكبر.

في الشهور الأولى كان سامى يحضر لها إيرادًا شهريًا ثابتًا. لكن لم يستمر الحال هكذا طويلا .

سامى شاب صغير السن، وجيه الشكل، حلو الحديث، تعرف عليه أولاد السوء لما معه من تاكسى ونقود وافرة فاخذوه لطريق العربدة.

تدهور حال سامى العملى والمادى وأصبح يعمل قليلا ويصرف كثيرا.

وأمينة تسأل عن الإيراد الشهرى الذى تبخر، وسامى يتحجج بأن التاكسى فى التصليح أو أن صيانة التاكسى لا تترك مجالًا للربح وأصبحت أمينة لا تحصل على أى إيراد.

ازدادت أعصاب امينة توترًا فازدادت شراستها وضربها لأولادها وخاصة نجوى التي تشبه أخت زوجها . زاد شجارها مع زوجها مطالبته بزيادة مصروفها، فهى تريد أن تعوض ما خسرته. فكانت تحصل على مصروف المنزل أسبوعيا يوم الجمعة ويوم الأحد تطلب المصروف مرة أخرى. وقبارى محتار فيها وماذا حدث لها.فكان يضربها لكى تكف عن الشكوى. وهى بالتالى تضرب أولادها .

فى إحدى نوبات غضب أمينة على نجوى بسبب أعمال المنزل، وكانت توسعها ضربا، بالاحذية والأيدي وكل شئ تقع عليه يدها، فضربتها بكوب زجاجى فى وجهها فسال دمها، وهربت نجوى من أمها إلى جارتهم أم منير المسيحية، فأخذتها أم منير وضمدت جراح الطفلة .

ذهبت أم منير إلى أمينة تعاتبها على فعلتها ، فقد كادت تشوه وجه ابنتها – وهذا رغم تحذير زوجها - فقد قال لها لن تخافى أنت على نجوى أكثر من أمها.

أم منير لأمينة : بالراحة يا أم نجوى كل الأولاد مثل نجوى، وأولادى نفس الشئ ولا يساعدونني أبدا فى أعمال المنزل.

أمينة : أولادى هم أولاد بطنى، وهم خدم لى، وإذا لم يخدمونى سوف أدوسهم بحذائى.

أم منير: من يخدم من ؟ هؤلاء أطفال وعلينا خدمتهم حتى يكبروا ، وربنا العالم من سوف يخدم من ؟

الطفلة نجوى تفكر فى كلام أمها وتسأل نفسها : هل أمها أنجبتها هى وإخوتها ليكونوا خدمًا لها ؟

تكورت الطفلة نجوى فى جانب من الصالة واستمرت فى البكاء، فقد كان الجرح مؤلمًا، كذلك هى جائعة وجسمها الرقيق يكاد يتجمد من برد الشتاء. فهى خادمة لدى أمها التى ليس عندها رحمة أو شفقة.

باع سامى التاكسى دون علم أخته وتزوج بثمنه، وذهب لشرم الشيخ لقضاء شهر العسل مع عروسه الحسناء، وتصرف مثل أصحاب الملايين بمدخرات أخته أمينة

وزوجها المطحون فى العمل . وأمينة تبحث عن أخيها والتاكسى والإيراد فى كل مكان ولا اثر لهم. وأخيرا عثرت أمينة على سامى .

وسألته : أين التاكسى ؟

سامى بوقاحة : التاكسى سُرق.

أمينة : أريد نقودى.

سامى : ليس لك شئ عندي.

أمينة : من أين حصلت على مصاريف الزواج ؟

سامى : من عملى.

أمينة : سرقتنى ياحرامى.

سامى : أنت الحرامية وسوف أبلغ زوجك.

أمينة : اخرس هذه مدخراتى التى سرقتها منى.

سامى : اخرجى قبل أن أضربك وأعلمك الأدب.

العروسة وهى تضحك ضحكات باهتة: خلاص ياسامى هذه أختك الكبيرة، اتركها تمشى.

رجعت أمينة بيتها، وعندما رأت نجوى أمامها التقطت حذاء وعملت الضرب فى الطفلة انتقاما من سامى

ونجوى تصرخ.

أنا عملت إيه ياماما؟ حرام عليك ياماما أنا لم أعمل شيئًا.

تركت أمينة نجوى وبدأت فى الصراخ والعويل واللطم على وجهها وشقت ملابسها نصفين، وارتمت على الأرض وهى تصرخ.

وقفت الطفلة نجوى حائرة لا تعرف ماذا حدث لأمها.

نجوى لأمها وهى تبكى وتربت على كتفها : أنا آسفه ياماما سامحينى ياماما . سوف أسمع الكلام ياماما... فقط لا تبكى ياماما... أقبل رأسك يا ماما. وأخذت نجوى فى تقبيل رأس أمها ويديها وهى تبكى . وأمينة تولول على فقدان مدخراتها.

ظلت الطفلة نجوى تبكى وتتعذب نفسيا وهى تهدئ من روع أمها حتى هدأت أمينة قليلا.

كانت أمينة منهارة تمامًا فقد احتال عليها أخوها وبدّد مدخراتها وهى غير قادرة على أن تبوح لزوجها، فإذا عرف قبارى أنها تدخر من وراء ظهره سوف يقلل من مصروفها. فاحتفظت لنفسها بمصيبتها .

لكنها أصبحت أكثر شراسة وعدوانية وتقتيرًا فى المصروف . وبسبب هذه العصبية التى لا يرى زوجها مبررا لها. بدأ قبارى يفكر في طلاقها ويبحث عن زوجة أخرى أو يحتفظ بها ويتزوج زوجة ثانية، فإن كثيرًا من أمثاله لهم أكثر من زوجة .

أحست أمينة بنوايا زوجها فزاد صراخها وعويلها وعصبيتها وضربها لأولادها. وكان محمد عندما يرى أمه فى هذه الحالة يخرج للعب فى الحارة ولا يهتم بها، فهو طفل ويعتقد أن هذا ما يفعله جميع الأمهات. أما نجوى فكانت، بعد أن تضربها أمها تمسك بها وتبكى .

...أنا آسفة يا ماما، سوف أسمع الكلام ياماما.. فقط لا تبكى وحقك عليّ ياماما.. وتنهار باكية، فهى تحب أمها مهما فعلت بها.

أمينة : بكره أبوكم يتزوج ويحضر لكم زوجة أب لتعذبكم.

نجوى باكية: لا ياماما لا تتركينا .

وتكررت نوبات أمينة العصبية، بكاء وصراخ ولطم خدودها، حتى فى منتصف الليل فيستيقظ الأطفال مرعوبين، ولا أحد يعرف ماذا بها. إنها تتعذب وتوسع أولادها ضربا وتذيق زوجها نكدا وهما. وقبارى ليس عنده حل إلا ضربها بالحذاء. وأحيانا يحضر لها الشيخ من الجامع يقرأ القران الكريم في البيت ويدعو لها فلم يكن يعرف أن زوجته مريضة نفسيا وقد أحتال عليها أخوها وبدّد مدخراتها ، فهي في حاجة إلى علاج نفسي.

فى إحدى النوبات الهستيرية قالت إنها سوف تموت أو يطلقها زوجها بسبب ابنتها وتأتى زوجة أبيها وتعذبها هى وإخوتها. فكانت أمينة تحمّل طفلتها نجوى سبب موتها أو خراب البيت.

تبكى الطفلة نجوى بحرقة ومرارة فهى سوف تكون السبب فى موت أو طلاق أمها، وسوف يتزوج أبوها من امرأة شريرة تذيقها العذاب هى وإخوتها.

نجوى لنفسها: وهل يوجد عذاب أكثر من عذاب أمى لى ؟ فبالإضافة للإهانة والضرب تسببت فى عاهة مستديمة فى وجهى.

ولماذا لا تكون زوجة أبى أفضل وأرحم من أمى ؟ وهل كل الأمهات وزوجات الأب مجانين مثل أمى؟

وجدت نجوى أن زوجة الأب، مهما كانت قسوتها ستكون أرحم وأحن عليها من أمها..

أصبحت الطفلة نجوى تتمنى طلاق أمها من أبيها، أو حتى موتها.

وصارت تهمل أمها إذا ما أصابتها النوبة الهستيرية وتنزل تلعب مع مريم أخت منير، وتترك أمها تبكى وتولول وتلطم خدودها وتقطع ملابسها ولا أحد يهتم بها.

الغريب أن الحالات الهسترية لأمينة بدأت تختفى تدريجيا عندما لاحظت أن ابنتها نجوى لا تهتم بها لكنها احتفظت بلسانها السليط وطبيعتها، العدوانية .ونظامها المميت فى الادخارلكى تعوض ما سرقه منها أخوها.

أتى طفل جديد فى العائلة، فغير قبارى خطته فى أن يتزوج بزوجة أخرى . فإن أخلاقه ومسئوليته لا تسمح له أن يرمى زوجته وأولاده الأربع فى الشارع. فليتحمل أم أولاده وكان الله في عونه. لكنه كان يخرج من الصباح الباكر ويأتى فى معاد النوم كي لا يتعامل مع زوجته. حتى الأيام التى كان ينتهى من عمله مبكرا يذهب إلى السينما أو يزور أقاربه حتى لا يرجع البيت مبكرا.

وأمينة منفردة بأولادها ضرباً وإهانة. فيومها كله عمل فى البيت أو ضرب الأولاد، فقد كانت لا تحب أحدًا من جيرانها ولا أحدًا يحبها، وقد توفيت أمها وقاطعت أخاها المحتال. ولم يبق إلا أولادها تكيل لهم العذاب ضربا وإهانة.

لكن كبر الأولاد وأصبحت غير قادرةعلى ضربهم وإهانتهم.

عندما يرجع قبارى من العمل تشتكى له أمينة طوال الليل من الأولاد.

قبارى : أريد النوم لكى أذهب للعمل مبكرا.

أمينة: يجب أن تضرب الأولاد لكى يسمعوا الكلام.

قبارى : فى الصباح، اتركينى أنام.

فى الخامسة صباحا يستقيظ الأولاد وهم مذعورون، وأبوهم يمسك بحزامه يضرب فيهم وهم نيام، وأمهم أمينة تنظر إليهم وهى فى منتهى الانتعاش، فقد شفى غليلها من أولادها وهى تضغط على أسنانها من الغل، فهى سادية المزاج، بالإضافة إلى النرجسية والعدوانية والشراسة، فهى مجنونة ومحتاجة إلى علاج، لكنها لا تعترف بذلك، إذ تعتقد أن كل الناس يكرهونها لأنها أفضل منهم.

وقبارى مرهق فى العمل وفى البيت وحياته جحيم مع هذه السيدة النكدية، وبعض أقرانه عندهم مشاكل مشابهة وكانوا يهربون من هذه المشاكل إلى شرب الخمر أو تدخين الحشيش أو القمار. لكن قبارى لم يلجأ لهذه الطرق، فكان يعمل ليل نهار وهذا أحسن علاج لمشاكله حتى يأتيه ربه بالفرج.

كان يتمنى قبارى أن يتعلم أولاده ولم يدخر فى سبيل ذلك جهدا . لكن البيت لم يكن مهيأ لذلك بسبب تصرفات تلك الزوجة النكدية.

كان الأولاد عندما يعودون من المدرسة، وبدل أن يتناولوا الغداء ويعملوا واجباتهم المدرسية، كانوا يقومون بأعمال المنزل من غسيل وكنس ومسح، وأمينة تقوم بطهى الطعام فقط . أما بقية أعمال المنزل فهى مسئولية الأولاد، هذا فضلًا عن ضربها لهم وإهانتهم.

فكان من الطبيعى أن يفشل الأولاد فى الدراسة . فذهب الأولاد للعمل فى الميكانيكا مثل قبارى، أما نجوى وأختها الصغرى فتعلما الحياكة .

تزوجت أخت نجوى الصغرى وذهبت للعيش مع زوجها فى بلد أخرى، ولم يرها

أحد إلا نادرا، وقد كانت تأتى كثيرا للقاهرة ولكنها لا تأتى لرؤية أمها أو إخوتها. فقد هربت من جحيم أمها ولا تريد الرجوع إليه مهما فعل معها زوجها أو أهله.

وذهب الأولاد للعمل فى الدول النفطية، وغرق محمد فى البحر محاولا الهجرة غير الشرعية لأوروبا.

وأمينة لم تتغير أو تتأثر بأى مصاب، فهى نرجسية سادية سليطة اللسان مستمرة فى التقتير على نفسها وابنتها نجوى، على أمل أن تشترى فى يوم من الأيام بيتا أو أرضا تبني عليها بيتًا وتكيد به أعداءها وهم زوجة أخيها وأخت زوجها.

وقفت نجوى أمام المرآة تحاول أن تخفى العلامة التى أصابتها بها أمها من سنوات فى جبهتها تحت شعرها.

ابتسمت أمينة بسخرية وقالت : مهما تعملى وجهك قبيح مثل أهل ابيك. ولن تتزوجى أبدا وسوف تظلى عانسًا مثل أخت أبيك .

نجوى باكية : حرام عليك ياماما أنا ابنتك، حرام عذاب فى... طول عمرى وأنا لم أسلم من عذابك!

أمينة: أنت شبه أخت أبيك وأنا لا أحبها ولا أحبك.

نجوى: وما هو ذنبى أنى شبه عمتى ؟ هل يوجد أم فى الدنيا تكره ابنتها من أجل شكلها؟

أمينة : بطلى فلسفة واغسلى الأطباق قبل ذهابك للعمل.

نجوى : غسلتها قبل أن ارتدى ملابس الخروج.

ألقت أمينة بجردل ماء فى أرض المطبخ.

وقالت لنجوى : امسحى أرض المطبخ قبل الخروج.

نجوى : أنا مرتدية ملابس الخروج حرام عليك الذى تفعلينه!.

أمينة : وأنت تعرفى حلالًا وحرامًا، فيجب أن تسمعى كلامى، فإن الجنة تحت أقدام الأمهات، وبدأت تبكى وتنوح فإن صحتها الآن لا تسمح بالضرب بالأحذية.

نجوى حزينة : حاضر يا ماما لا تبكى فسوف أعمل الذى تريدينه.

ارتدت نجوى جلباب البيت فوق ملابس الخروج ومسحت المطبخ .

أمينة : اشترى لى الإفطار قبل ذهابك للعمل.

نجوى : افطرى أى شئ فى البيت لقد تأخرت عن العمل.... السلام عليكم.

عند اقتراب نجوى من المحل التى تعمل به والذى يجاور ميدان التحرير وجدت مظاهرات وطلقات نارية وقد امتلأ الميدان عن آخره بالمتظاهرين وبدأت تستفسر عن سبب هذا الهرج والمرج فقالوا لها إنها الثورة.

نجوى : ثورة إيه ؟ احنا طوال اليوم أمام التليفزيون وكل شئ على ما يرام.

الناس تجرى مذعورة.... ويصيحون بها ..اجرى يا آنسة ...اجرى يا آنسة..

نجوى : أجرى من ايه ؟ أنا ماشية على الرصيف.

وجدت نجوى نفسها وسط الزحام، أمواج من البشر تهز الميدان، أغمى عليها، سقطت على الأرض، داستها أقدام المتظاهرين دون أن يدروا، لفظت نجوى أنفاسها الأخيرة وهي تقول: سامحيني يا أمي فلم أحضر لك الإفطار.

اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكني أسألك اللطف فيه

تمت

***